(٦) حبيب العجمي[١]

ذكر حبيب العجمي رضي الله عنه:

قيل: كان صاحبَ صدقٍ وهمَّةٍ، وكراماتٍ عالية، ورياضاتٍ كاملة، وكان في الابتداء له مالٌ كثير، وكان آكلاً للرِّبا، وكان ساكنًا بالبصرة.

وكان شغلُه في جميع الأيام أن يدورَ على الجماعة المديونين، ويتقاضى منهم الدَّينَ، فمن كان واجدًا لشيءٍ كان يأخذُه من قِبَلِ الدَّين، ومن لم يكن واجدًا لشيءٍ يطلبُ منه شيئًا عن المجيء إليه، ويصرفُ ذلك الحاصلَ في نفقته وأهله، فذهب بعض الأيام إلى باب غريمٍ له، فما وجده في بيته، فطلب من امرأته عادتَهُ، قالت: ليس زوجي في البيت حاضرًا، وما لنا في البيت شيءٌ غير رقبةٍ بقيت من لحمِ ضأن ذبحناه. قال: هاتيه. فأخذ الرقبةَ منها، وراح إلى دارِ غريمٍ آخر، وحصَّل حطبًا، وإلى آخر وأخذ مِلحًا، ومن آخر خبزًا، وذهب بالجميعِ إلى بيته، وقال لامرأته: اطبخي الرقبةَ لنأكل. فطبختها المرأة، فلمّا فتحتْ عن رأس القدرِ جاء سائلٌ، فصاح عليه حبيب، وقال: لنا شيءٌ قليلٌ من الطعام، إن أعطيناك نبقى بلا عشاءٍ، وأنت تدورُ على أبواب الناس، ويحصل لك ما يكفيك. فرجع السائل مَحرومًا، فنظرتِ المرأةُ في القدر، فإذا ما فيه صارَ دمًا أسود، فجاءت المرأة إلى حبيب، وأمسكت بيده، وذهبت به إلى

---

(١) ترجمته في: التاريخ الكبير ٢/ ٣٢٦، الجرح والتعديل ٣/ ١١٢، مشاهير علماء الأمصار ١٥٢، حلية الأولياء ٦/ ١٤٩، الأنساب ٨/ ٤٠١، صفة الصفوة ٣/ ٣١٥، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ١٥٦، مختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٨٥، تهذيب الكمال ٥/ ٣٨٩، سير أعلام النبلاء ٦/ ١٤٣، ميزان الاعتدال ١/ ٤٥٧، تاريخ الإسلام ٥/ ٢٣٣، الوافي بالوفيات ١١/ ٢٩٩، طبقات الأولياء ١٨٢، تهذيب التهذيب ٢/ ١٨٩، النجوم الزاهرة ١/ ٢٨٣، طبقات الصوفية للمناوي ١/ ٢٦٣، ٥٩٣.

القدر، وأرته ما في القدر، وقالت: ليس هذا إلاّ من شؤم أفعالك، ولؤم خصالك؛ تأكلُ الرِّبا، وتنهرُ السائل، فلا جرمَ يكون حالُ طعامنا[١] مثلَ ما ترى، ولا نعلم أن الحال في المآل كيف يكون. فلمّا رأى حبيبٌ حالَ القدر، وتفكّر في حالِهِ، وقبحِ فعله، اشتعلتْ نارُ الخوف في صدره بحيث ما انطفأت أبدًا، وقال: يا امرأتي، إنّي تُبتُ إلى الله تعالى. وما طلع ذلك اليوم من بيته، وكان متفكِّرًا مُتحيِّرًا إلى الغد، وفي الغد خرجَ من البيت على نيّةِ أن يجمعَ أموالَه، ولا يُعطي بعده شيئًا بالرِّبا، فالتقى بجماعةٍ من الصبيان يلعبون، قال بعضهم لبعض: جاء حبيبٌ آكلُ الربا، تنحّوا عن طريقه لئلا يصلَ إليكم غبارُهُ[٢] وتكونون أشقياءَ مثله. فسمع حبيبٌ كلامَ الصبيان، وتأثَّر في قلبه تأثُّرًا عظيمًا، فتوجَّه إلى مجلس الحسن البصري رحمه الله، فحين دخلَ المجلس جَرى على لسان الحسن شيءٌ سلبَ عقلَ حبيب، وغُشي عليه، فلمّا أفاقَ تابَ على يدِ الشيخ رحمه الله، وندم على ما فات، وخرج، فإذا هو بغريمٍ رآه، وأرادَ أن يهربَ منه، صاح حبيبٌ خلفه وقال: لا تهرب، إلى اليوم أنت كنتَ هاربًا منّي، واليوم أنا أَهربُ منك. وجاء إلى البيت، فالتقى بالقيان المعهودين، وهم على ما كانوا من اللعب واللهو، فلمّا أحسُّوا به قالوا: طرِّقوا لحبيبٍ التائب ليعبرَ، ولا يصل إليه منَّا أذًى، فنصير عصاةً لله تعالى. قال حبيب: إلهي وسيِّدي ومولاي، صالحتُ معك يومًا؛ بل لحظةً تدقّ لي طبولَ القبول في القلوب، وأُذكرُ بالخير، فكيف إن أبقى على هذا الحال وأستمرُّ؟ ثم أمرَ مُناديًا ينادي: أَلاَ مَنْ له على حبيبٍ حقٌّ فليحضر ويأخذْ منه. فحضر خلقٌ كثيرٌ ممّن عاملهم بالرِّبا، وأخذوا منه حقوقَهم، ولم يبق شيء أصلاً، فجاء آخرُ وادّعى عليه شيئًا،

---

(١) في (ب): حال طعامك.

(٢) روى أبو داود (٣٣٣١) في البيوع، باب في اجتناب الشبهات، والنسائي ٧/ ٢٤٣ في البيوع، باب اجتناب الشبهات عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من بخاره» قال ابن عيسى شيخ أبي داود: «أصابه من غباره».

فأعطاه ملحفةَ امرأته، وجاء آخرُ فخلع قميصه وأعطاه، وبقي عريانًا، فذهب إلى ساحلِ الفرات، وبنى صومعةً هناك، واشتغل بالعبادةِ ليلاً ونهارًا، وكان يأتي إلى الحسن البصري رضي الله عنه في بعض الأوقات ويتعلَّمُ منه القرآن، وكان بليدًا؛ ولذا سُمّي بالعجمي، فلمّا مضى عليه زمانٌ من الدهر صارَ فقيرًا في غاية الفقر والفاقة، وامرأتُهُ كانت تطلب النفقة، واضطربَتْ أحوالُه، وانقطعت عن الدينا آماله، فخرج من بيته مُتوجِّها إلى صومعته، واشتغلَ بالعبادة إلى الليل، ثم رجع إلى البيت، فقالت المرأة: أين كنت؟ وبأيِّ شيءٍ اشتغلت؟ قال: أعمل لشخص عملاً. قالت: وأين الأجرة؟ قال: الذي أعملُ له كريمٌ استحييتُ أن أطلبَ منه الأجرة، إلاّ أنه سيعطينا دفعةً واحدة، وسمعتُ أنه يُعطي في كلِّ عشرة أيام. وكذلك كان يتردَّدُ إلى صومعته، ويشتغلُ بالعبادة حتى تمَّتِ العشرةُ، وقعَ في اليوم العاشر بعد الظهر في باله: أنا في هذه الليلة بأيِّ شيءٍ أَذهبُ إلى البيت؟ وماذا أقول لهم؟ وكيف أعتذر لديهم؟ وغرقَ في بحر الفكر متوجّهًا إلى الله تعالى، إذ جاء في تلك الساعةِ جماعةٌ إلى باب داره، ومع كلِّ واحدٍ شيءٌ من أسباب النفقة من الدقيق واللحم، والسمن والعسل، وما لا بدَّ منه، ويُحتاجُ إليه من جهة المعاش، ومعهم شابٌّ صبيحُ الوجه، كأنَّ وجهَهُ القمر، ومعه صُرَّةٌ من الدراهم، ودقَّ الباب، فجاءتِ امرأةُ الحبيب إلى الباب، فقال لها الشاب: بعث لكم هذه الأشياء الكريمُ الذي يعملُ له حبيبٌ كلَّ يوم، ويقول: قولي لحبيب: زدْ أنت في العمل، ونحن نزيدُ لك في الأجرة، فكلَّما تزيدُ نزيد. وحطُّوا أحمالَهم ومضوا، ثم حبيب صبر في الصومعة إلى أن جنَّ عليه الليل، فقام متفكِّرًا خجلاً، وقصد البيتَ يُقدِّمُ رِجلاً ويؤخِّرُ أُخرى، قائلاً في نفسه: ماذا أقول لأهلي؟ وكيف أعتذر عندهم؟ فلمّا بلغَ باب البيتِ اشتمَّ من الداخل رائحةَ الطعام المطبوخ، فدقَّ الباب، واستقبلته امرأتُهُ في غايةِ الفرح والسرور، وقالت: إنَّ الكريم الذي تعمل له أكرمَكَ وأحسنَ إلينا، وبعث لنا كذا وكذا، وقال: قولي لحبيب: كلَّما تزيدُ في العمل، نحن نزيدُ في أجرك. فتحيَّر حبيبٌ وتعجَّبَ من ذلك، وقال: ما عملت عشرة أيام، فإنّه تعالى قد

أحسنَ إليَّ زيادةً على عملي، فإنَّا إن ننقطعَ عن غيره، ونعملَ له ما بقي من العمر، ونجتهد على طاعته فلا بدَّ أننا ما نخيب عن رحمته. فأعرضَ عن الدُّنيا بكلِّيته، واشتغلَ جميعَ عمره بعد ذلك في العبادة والإخلاص والزهد والورع حتى صارَ من الأولياء، وصار مستجابَ الدعوة بحيث يحتاجُ الناسُ من الأكابر وغيرهم إلى دعائه.

حكي أنه جاءت إليه امرأة عجوزٌ باكية متضرِّعة، وقالت: إنّ لي ابنًا قد غاب عن عيني[١] زمانًا، وأنا مُشتاقةٌ إليه، وما بقي لي طاقةٌ على فراقه، وأُريدُ أن تدعو الله تعالى عسى أن يردَّه إليَّ ببركة دعائك. قال حبيب: هل لك شيءٌ من الدراهم والدنانير؟ قالت: نعم، فأمرها بالتصدُّقِ، ثم دعا لها، وقال: إن الله تعالى يُوصلُه إليك الساعةَ إن شاء الله تعالى. فما وصلتِ العجوزةُ إلى باب بيتها إلاّ وقد رأت ابنها جائيًا إليها، فصاحت العجوزةُ، وأخذت الابنَ وجاءت به إلى حبيب مسرورةً شاكرةً لله تعالى، فسأله حبيب، وقال: كيف جئت؟ قال: كنتُ في كَرْمان[٢] خادمًا لشخصٍ، فبعثني إلى السوق في طلب لحمٍ لأشتري له، فاشتريت له لحمًا، ورجعت إليه، فهبَّتْ ريحٌ وحملتني، وسمعت قائلاً يقول: يا ريحُ، إلى أُمِّه. وكان ذلك ببركة دعاءِ حبيب رحمه الله، وصدقةِ والدته

وحُكي أنه رُئي يومَ التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجّة في البصرة، ويومَ عرفة وهو اليوم التاسع من ذي الحجّة بمكة في عرفات.

ووقع في البصرةِ قحطٌ عظيم، وحصل للفقراء ضررٌ ومحنةٌ، فاشترى حبيبٌ طعامًا كثيرًا نسيئةً، وفرَّقه على الفقراء، وخاط خريطةً، ووضعها تحت رأسه، فلما جاءَ إليه أربابُ الديون للتقاضي أخرجَ الصُرّةَ، فإذا هي مملوءةٌ من الدراهم، فوفّى منها الديون.

وكان له فروةٌ عتيقة يلبسُها صيفًا وشتاء، فتركَها مرّةً على بعض الطرق في

---

(١) في (ب): قد غاب عنّي زمانًا.

(٢) كَرْمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة، ذات بلادٍ وقرى ومدن واسعة، بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. معجم البلدان.

البصرة، وذهب لقضاءِ الحاجةِ، فجاء الحسن البصري رحمه الله، ورأى الفروةَ مطروحةً على الطريق، وعرفها أنها لحبيب، فوقفَ هناك لئلا تضيعَ، حتى جاء حبيب، فقال الحسن له: يا عجمي، أما علمتَ أنَّ الفروةَ لا تُطرح على الطريق عسى أن تضيع، فعلى من كان اعتمادك؟ قال: على الذي أرسلَ مثلَ الحسن البصري ليحميها ويحفظها.

حُكي أن الحسن رحمه الله جاءَ إلى الحبيب في بعض الأيام ليزورَه، فقدّمَ حبيبٌ إليه رغيفين من الشعير وقليلاً من الملح، فلمّا شرعَ الحسنُ في الأكل جاء سائلٌ إلى الباب، فأخذ حبيبٌ الرغيفين وأعطاهما للسائل، فقال الحسن له: أنت رجلٌ عابدٌ؛ ولكنْ لو كان لك علمٌ لكان أحسنَ، أما تعلمُ أنَّ الطعامَ الموضوع عند الضيفِ هو أَوْلى به من الغير، ولا يُرفع إلاّ بعد أن يأكلَ منه شيئًا؟ فسكت حبيبٌ، إذ جاء بعد لحظةٍ غلامٌ، وعلى رأسه طبقٌ وعليه سخلةٌ مشوية، وحلوٌ وخبزٌ رقاق، ومعه خمسُ مئة درهم، ووضع ذلك عند حبيب، فلمّا اشتغلا بالأكل قال حبيب: يا شيخُ، أنت رجلٌ جيِّدٌ وعالم؛ لكن لو كان لك شيءٌ من اليقين لكان أحسن.

حكي أنَّ الحسن كان مارًّا على باب صومعة حبيب، وقد أُذِّنَ للمغرب، واشتغل حبيبٌ بصلاة المغرب، فدخلَ الحسنُ، وأراد أن يَقتدي به، فسمعَ أنَّه قرأَ: (الهمد لله) مقام ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فلم يقتدِ به، وصلّى مُنفردًا[1]، فرأى في تلك الليلة اللهَ تعالى في المنام، قال: يا ربّ، في أيِّ شيءٍ رضاك؟ قال الله: يا حسن، قد وجدتَ رضائي، وما عرفتَ قدره. قال: كيف يا ربُّ؟ قال الله تعالى: لو صلّيتَ خلف حبيب لأدركتَ رضائي، وكانت تلك الصلاةُ خيرًا لك من صلواتك في عمرك، لكن سقم عبادتك منفكَّةٌ عن صحّة النية، فبين تقويمِ اللسان وتصحيحِ نيَّةِ القلب تفاوتٌ كبير[2].

حُكي أن جماعةً من غلمان الحَجّاج كانوا يطلبون الحسنَ، ويدعونه إلى

---

(١) في (أ): وصلى وحده.

(٢) جاء في هامش (أ): هذا أيضًا: مخالف للشريعة، وافتراء على الحسن رضي الله عنه.

الحجّاج، والحالُ أنّه كان في صومعةِ حبيب، فسألوا حبيبًا عنه، قال: هو في الصومعة. فدخلوا الصومعة وطلبوه، فلم يجدوه، فخرجوا منها، وقالوا: الذي يصنعُ معكم الحجّاجُ هو أقلُّ جزائكم؛ فإنّكم قومٌ كذّابون، قلتَ هو في الصومعة، وليس هو فيها. قال حبيب: هو داخلُ الصومعة بحضوري، فإن كنتم لا ترونَهُ فلا عليَّ. فدخلوها مرّةً أُخرى وما وجدوه، فتركوه ومضوا، ثم خرجَ الحسن منها، وقال: يا حبيبُ، ما راعيت حقوقَ التعليم والتعلُّم، وسعيتَ بي إلى الظلمة. قال: يا أستاذ، لا تعترضَ عليَّ، فإنَّك ما نجوتَ منهم إلاّ بواسطة صدقي في هذا المقال، فإنّي لو كذبتُ وكتمتُك لهلكتُ أنا وأنت. قال الحسن: ماذا صنعتَ حتى ما رأوني؟ قال: قرأتُ آيةَ الكرسي تسعَ مرات و﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ . . . ﴾ [البقرة: ٢٨٢] تسعًا و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تسعًا، وقلتُ مرّةً واحدة: يا ربّ، استودعتك الحسن، فاحفظه. قال الحسن: وضع بعضُهم يدَه عليَّ سبعَ مرات وما رآني.

نقل أنَّ الحسن رحمه الله أراد يومًا أن يذهب إلى موضعٍ، وجاء إلى جنب دجلة، ووقف متفكّرًا، إذ جاء حبيب وقال: يا إمام، لمَ وقفت هنا؟ قال: أريد العبور، ولا أجد زورقًا أركب عليه. قال: يا أستاذ، مالك لا تقدرُ أن تعبرَ على الماءِ، وأنا من أقلِّ تلاميذك، وأنت شيخي! أخرجِ الحسدَ من قلبك، وبرّدِ الدنيا على فؤادك ـ يعني اترك محبَّتها ـ واغتنمِ البلاء، واعلمْ أن الأمور كلَّها من الله تعالى، ثم ضعْ رجلَكَ على الماء واعبر. قال: وحطَّ رجلَه على الماء، وعبرَ دجلة، والحسنُ ينظر إليه حتى خرَّ مَغشيًّا عليه، فلمّا أفاقَ قال حبيب: مالك يا إمام المسلمين؟ قال: أنت من تلاميذي ولُمتني الساعةَ، وعبرتَ دجلةَ، وأنا بقيتُ اليوم في هذا الطرف متحيِّرًا، فأنت تعبرُ غدًا على الصراط، وأنا أبقي كذلك مُتحيِّرًا، كيف يكون حالي؟ ثم قال: يا حبيب، بمَ أدركت هذه المنزلةَ والدرجة؟ قال: لأنّي أُبيِّضُ الباطن، وأنت تُسوِّدُ الكاغد. قال: يا عجبًا، أعلمي نفعَ غيري، ولم ينفعني[1].

ولا يتوهَّم أحدٌ أنَّ مقامَ حبيبٍ كان أعلى من مقام الحسن، إذ ليس عند الله

(١) انظر حبر عتبة الغلام مع الحسن صفحة ٩١.

تعالى عبادةٌ أَعلى من العلم، ولذا أمرَ اللهُ تعالى بطلب زيادة العلم حيث قال: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وقال امتنانًا على آدم عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وقد وردَ في كلام بعضِ المشايخ[١]: أنَّ الكرامةَ واقعةٌ في الدرجة الرابعة عشرة من الطريقة، والعلمَ في الدرجة الثمانية منها[٢]، وذلك لأنَّ الكرامة من كثرةِ العبادة، والعلمَ من كثرة التفكُّر، والثاني أفضلُ من الأول، والحسن رحمه الله كان من كبارِ العلماء التابعين، وأدركَ صُحبةَ كثيرٍ من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين

أقول: والسرُّ في ذلك أنَّ أحوالَ الأولياء متفاوتةٌ في الأوقات والأزمان بحسب تفاوتها قبضًا وبسطًا، وحدة وكثرةً، والدليلُ عليه ما رُوي عن يعقوب عليه السلام أنه وجدَ ريحَ قميصِ يوسف عليه السلام لمَّا خرجَ به بنيامين من مصر مع بُعدِ المسافة، وحين كان يوسفُ عليه السلام في الجبِّ ما اشتمَّ رائحةً منه مع قربه، ولهذا لا تكون أحوالُ الوليِّ كلُّها على طريقةٍ واحدة، وهذا ممّا لا سترة به، والله أعلم.

نقل أنَّ الشافعيَّ وأحمد بن حنبل رحمهما الله كانا جالسين في مكانٍ، إذ طلع حبيبٌ، وتوجَّه إليهما، فقال أحمد: أُريدُ أن أسألَ منه مسألةً. قال الشافعي رحمه الله: لا تسألْه؛ فإنه من قومٍ لا يَخفى عليهم بتوفيق الله تعالى شيءٌ. قال: لا غنًى عن السؤال. فلمّا جلسَ حبيب، قال أحمد: ماذا تقول في شخص تركَ صلاةً واحدةً من الخمس، ولا يدري أيَّ صلاةٍ هي[٣]، كيف يفعل؟ قال حبيب: هذا قلبٌ غفل عن الله، فليؤدَّبْ، وليؤمر بقضاءِ الصلوات الخمس. فتحيَّرَ أحمد من جوابه، قال الشافعي رحمه الله: أما قلتُ لا تسأل منهم؟.

نقل عن حبيب أنّه كان بيده إبرةٌ في ليلةٍ مظلمة، فضاعت عنه، فأُضيءَ البيتُ في الحالِ حتى وجدها، فغمض عينيه، وقال: لا، لا، لا أُطيقُ أن أجدَ غير الله.

---

(١) في (أ): وقد ورد عن بعض المشايخ.

(٢) كذا الأصلين، وفي (أ) تحت كلمة (الثمانية) كُتب: (الثمانين).

(٣) في (أ): أي الصلوات هي.

ونقل أنه كان له جاريةٌ ثلاثين سنة، وهو ما نظرَ إليها، وما كان يعرفُها، حتى في بعض الأيام رآها واقفةً، قال: يا فلانة، ادعي لي جاريتي. قالت: ها أنا جاريتُك! قال حبيب: يا عجبًا، ما نظرتُ إلى غيرِ الله في مدة ثلاثين سنة، فكيف أعرفك؟

ونقل أنه رحمه الله كان يجلسُ في زاويةِ بيتٍ، ويقولُ مُناجيًا: من لا يطيبُ قلبُه بك لا يطيب قلبُه أبدًا، ومن لا تقرُّ عينه بك لا تقرُّ عينه أبدًا، ومن لا يستأنسُ بك لا يكون له أنيسٌ أبدًا.

وسئل: فيم يكون الرضا؟ قال: في قلبٍ لا يُوجد فيه من النِّفاق غبار.

ونقل أنه متى كان يُقرأُ عنده[١] شيءٌ من القرآن، كان يبكي بكاءً شديدًا، فقيل له: أنت عجميٌّ، والقرآن عربيٌّ، فكيف تفهمَ حتى تبكي؟ فكان يقول: لساني عجمي، وقلبي عربي.

قال بعض الصالحين: رأيتُ حبيبًا في المُكاشفة في مرتبةٍ عالية، قلت: أليسَ هذا عجميًا، من أين له هذه المرتبة[٢]؟ فسمعتُ صوتًا، ولم أر شخصًا: هو وإن كان عجميًا لكنه حبيبٌ.

ونقل أنه صُلبَ شابٌّ بجريمة، فرُئي في تلك الليلة في المنام أنه يطوفُ في رياضِ الجنة، وعليه حلّةٌ خضراء، وهو في غاية الاستراحة، قيل له: يا فلان، بم نلتَ هذه السعادة، ووصلت إلى هذه المنزلة؟ قال: لمّا كنتُ مَصلوبًا مرَّ عليَّ حبيبٌ، ونظرَ إليَّ بطرفِ عينه، فوصلتُ إلى هذه المنزلة بنظرة.

فنقول: إلهنا ومولانا، نرجو من كرمك وإحسانك ولطفك وامتنانك أن تنظرَ إلينا نظرة رحمةٍ نستغني بها عن الكائنات، فأنت خالقُ الأرضِ والسموات، ومُبدعُ الأجرام العلويات والأجسام السُّفليات، والله أعلم بالصواب.

* * *

(١) في (أ): قرأ عليه شيء.

(٢) في (أ): أين له هذه الكرامة.